غالية سعداوي*

أتلقى رسالة إلكترونية. يسألونني إن كنت أريد الحضور. يستكشفون مدى اهتمامي في المشاركة بلقاء يجمع أشخاصاً آخرين في الخارج. (هذه ثاني دعوة من هذا القبيل أتلقاها هذا العام. وافقت على الأولى. كانوا ينادون بعضهم: رفيق. أعجبني ذلك لأنهم كانوا على قدره، لكنهم لم يسافروا بعد، ولم ينفقوا مالاً لدعوة أحد.)

الدعوة الثانية كانت مبهمة. يسألون "ماذا أفعل في حياتي؟". "هل عندي استعداد؟". لا أعرف من هم بالظبط. سمعت أسماءهم من قبل. لدي شعور ما، شعور بأنهم ليسوا مؤذيين، وبأنني قد أخرج بشيءٍ ما من هذا. ولكن عادة ليس هكذا أتخذ قراراتي، ولا هذا أصلاً معيار كافٍ لاتخاذ قرار. يقولون أن اللقاء 'غير رسمي'. تماماً كعنوان الرسالة الإلكترونية التي تلقيتها: "لقاء غير رسمي". لكن ما هو نوع المشاركة التي يقومون بتجنيدي من أجلها؟ أجيب بأدب مع شيءٍ من التردد، مشككة بموافقتي: "نعم، بالطبع".

///

اسأل عن التفاصيل وعن أسماء باقي المدعوين، لدي فضول. من تم دعوته؟ "ليس الآن"، يجيبونني. صمت طويل. من ثم تصلني رسالة أخرى موجهة لي ولأشخاص آخرين. لا أستطيع رؤية أسمائهم. هذه الرسالة تحمل نبرة أكثر رسمية، وقد كتبها أحد المنظمين. الآن، اللقاء رسمي، ومع ذلك لا يزالون يسمونه 'غير رسمي'. يدعونني للسفر إلى مكانٍ يُعرف بأحيائه المظلمة والفقيرة وبعملائه السياسيين وبلحم الخنزير وبرجاله وخواتمهم الذهبية الكبيرة الموضوعة في خناصرهم. تلك الصورة التي ورثتها من أفلام المافيا. سوف أذهب - سيكون من الرائع التعرف على مدينة جديدة وتناول المعكرونة الدسمة واحتساء النبيذ ذا الطعم الترابي. كم أنا أنانية. ربما سأسافر أيضا من هناك إلى مشروع المزرعة... ما هذه الخطة؟ ما هو سبب دعوتي ولأية غاية؟ لماذا افترضت، أصلاً، أن تناول المعكرونة الدسمة مع هؤلاء الأشخاص سيكون أمراً آمناً؟ ما نوع التدريب الذي يمكن لأكل لحم الخنزير والمعكرونة أن يهيئك له؟

/ / /

صمت. ثم تصلني رسالة ثالثة. تم إلغاء اللقاء حتى إشعار آخر. لا توضيح. ولكنني لست مرتابة. لماذا لا أجد نفسي مرتابة؟ ألا يجب أن أرتاب؟ سوريا تحترق، مدمَّرة إلى أن يصل المخططون المدنيون في جامعة هارفارد والمال الخاص الطائل لإعادة إعمارها، بينما يمضي الآخرون بتقسيمها. في الجوار يوجد احتلال خبيث، وفي الجنوب الغربي ثمة خيال علمي حيث كل فردٍ قابع في السجن. أوروبا هي مهرجان هرمونات ذكورة يميني، وهنا نقوم بتشييد مراكز تجارية تدعى "ايكومال" (Eco-mall). هذا دون ذكر كل الأشياء الأخرى على مستوى خلاياك. على أية حال، لم يكن هناك جدوى. أخذ موقف ما، يُطلَق عليه تسمية "ثنائيات قاطعة"، أمر سيئ اليوم كما قيل لي. "كش ملك" يدعى بالسخرية؛ القتال المسلح والحديث عن المستقبل يُستبدَلان بوجهات النظر؛ وإنسانية جيل الألفية هي الإيديولوجيا الجديدة.

أصبحت قلقة جراء عدم ارتيابي من إلغاء اللقاء. في أغلب الأحيان، تمر في خاطري أفكار عشوائية. ما هي وجهتهم المقبلة؟ هل سيكون المكان مشمساً؟ هل غيروا رأيهم بشأن دعوتي؟ هل تم كذلك دعوة أصدقائي وأعدائي؟ في النتيجة، فإن اللقاء كان دولياً. "غير رسمي" و"دولي" دون أدلجة. ماذا حدث للأيدولوجيا؟ إن بحثتُم فقد تجدوا. بعضهم تافه، والبعض الآخر خطير. ولكن بعضهم ذهبٌ خالص، رغم أن كل شيء قد انصهر الى حالة ما بعد الذهب. قد تكون هذه "الدولية" كما وخصمها ثعبان متعدّد الرؤوس. يُمكن للمستقبل، بغض النظر عن انه أصبح حاضراً، أن يُصنع.

/ / /

بعد بضعة أشهر، تصلني رسالة شخصية. يريد المنظمون مقابلتي في المدينة حيث أعيش. لقاء غير رسمي تماماً هذه المرة، قيل لي. نلتقي، نتناول طعاماً حاراً، نتحدث عن العالم وعن أشخاص نتشارك معرفتهم. أعتقد أنني أروق لهم. نحتسي القهوة، تصل الفاتورة، أنا مدعوة.

قبل ذلك، كانت هناك رسالة أخرى ومكان لقاء جديد. ربما كان الوضع أكثر أماناً هناك. أو أكثر انعزالاً. مجدداً، لا أسماء، لا يستنظرون مني شيء. كل شيء مرتب ومخطط له. أتساءل، ما الذي يريدونه مني؟ هل يعجبهم أسلوبي؟ هل قرأوا شيئاً كتبته؟ هل أخبرهم أحد بأن ما لم أكتبه بعد هو أهم من أي شيء قد سبق وكتبته؟ هل أخبرهم أحداً أنني قد أكون مُهرِّبة ممتازة – بأن صوتي العميق والجهير قد يكون تمويه جيد؟ أو بأنني ماركسية غاضبة لا زالت تلقن الشباب عن الإيديولوجيا؟ لكن، لا فائدة لهؤلاء من هذا على الإطلاق.

حسناً. سأذهب إلى المكان الجديد. سيكون في أعماق الشتاء، البرد سيكون قارس، وقد يمكنني الحصول على جلسة تليف تقليدية من قبل نساء بدينات، لامباليات وبالكاد مكسوات الجسد. كما أنني أعرف فنان لطيف وكثير الكلام هناك. كم أنا أنانية.

/ / /

أشهر بعد ذلك، قد تم حجز تذكرتي، اكتشف أن هناك "عميلان" نشيطان آخران من مدينتي، وآخرون من مدن أخرى. علينا أن نجيب على بعض الأسئلة. لقد أرسلوا لنا تذكرة سفر، مخطط الرحلة، ولا أسماء. تصلنا التعليمات ليلة واحدة قبل موعد السفر. نستقل الطائرة. بالرغم من المطارات المصابة بالإرتياب ومن عمليات التفتيش المشددة، تم تفتيشي كيفما اتُفق وبشكل عادي. لماذا تم تفتيشي بشكل عادي؟ هل أبدو بريئة؟ ماذا لو كنت أحمل غرامات من الأفيون أو سلاحاً ما في حذائي؟ في الواقع، لما لم يطلب مني أحد أن أنقل أفيوناً أو أي شيء من هذا القبيل قبل ذلك؟ عندما وجدت نفسي أقول للشرطي، ممازحة، أن تفتيش المرأة الشرطية لي كان ضعيفاً (مذعورة من الكلمات التي أتفوه بها)، أجاب بلا مبالاة: "لا. الآن نعلم من مجرد النظر".

/ / /

أشهر شاب أسود الشعر، بسرعة البرق، ورقة عليها أسماءنا ثم أخفاها في جيبه. لم ينطق بكلمة. إقتادنا إلى الخارج حيث كانت بانتظارنا سيارة سوداء اللون،

صعدنا إلى داخلها. السائق لم يتكلم الإنجليزية. جلس في صمت وكان يبدو أوزبكي: رأس صغير مستقر جيداً بين كتفين عريضين، تركي وكازاخستاني. وصلنا إلى الميناء حيث كانت إمرأة شابة – تبدو بريئة وتقوم بمهمة الوساطة – تنتظرنا وبحوزتها التذاكر. سبقتنا راكضة بعجلة، حاملة حقائبنا، ووضعتها على متن القارب قائلة إنه لدينا دقيقتان. نركب العبّارة. أنظر محدقة إلى جزيرة تلو الأخرى عبر الشباك. بعد ساعتين نصل إلى جزيرة تروتسكي. أستاذ سيدوف. شاب أوروبي يرحب بنا عند المرفأ ويرافقنا باتجاه مكان إقامتنا. نجر حقائبنا الصغيرة صعوداً. لم نر المسؤولين بعد، ولا المشاركين الآخرين. هنا، في جزيرة باردة ونصف مهجورة، حيث الكلاب الضالة والأحصنة والقطط والڤيلات العثمانية المسكونة، ننتظر.

/ / /

لدي صديق حميم. حبيب سابق. في الحقيقة لدي إثنان. حسناً، أكثر من إثنين. أحدهم ترعرع في ستينات القرن الماضي. لم يشيب شعره بعد، اما الجلد حول عنقه فبدأ خفيفاً بالهزول. له عينان رقيقتان كعيني حصان وإرادة صلبة كالثور. وهو من الطراز القديم. كان في مهمة أيام شبابه، بالأحرى، عدة مهام. عميل ناشط. أولئك الذين يمكنني تخيلهم، أو القراءة عنهم. لكنت انا نفسي عميلة ماهرة، بعيداً كل البعد عن النوستالجيا، وإنما مع شيء آخر اقوى من ذلك بكثير. يا لتحريم الكلام عن هذه الامور. بادر وماينهوف وأوكاموتو والألقاب التي تبدأ بـ"أبو..." والأسماء الأخرى المجهولة والتي تفوق الحصر؛ ليسوا هؤلاء "غير الرسميين" على جزيرة بويوكادا.

/ / /

في "اللقاء غير الرسمي"، نجلس مكوّمين في غرفة أمامية داخل بيت ذو طابقين، خلف الباب الأمامي. نشكل دائرة كبيرة تحتل الأرائك والكراسي. نتشارك ثلاث مدفئات كهربائية. جميع الأبواب والشبابيك مغلقة. بقية أرجاء المنزل مغطاة بسجاد سميكٍ فيروزي اللون وثريات مزخرفة بالزهور ومغسلات رومانية مزيفة وطاولة طعام ذهبية وسوداء ذات الزجاج المدخن المناسب لأخذ المخدرات. هذا "كيتش" السبعينات. كان يوم برد قارس من شهر كانون الثاني على هذه الجزيرة الجنوبية. كل ما أتذكره هو تلك المرأة الحامل في الجيش الأحمر المتحد، التي تمردت فلاقت حتفها على تلك السارية في الثلج، في ذاك الفيلم الياباني المتكلف. ربما أكون أنا أيضاً حامل، لكنني مستلقية براحة على هذه الأريكة. حتى وأنا أقرأ ما أكتبه الآن، يبدو تمردي وكأنه مصدر ضحك للآخرين. لماذا؟

بينما جلسنا وتكلمنا كلٌّ بدوره بطاعة، أخذين إستراحات قصيرة، ظللت أشرد بعيداً وأعود: لحسن الحظ، لا توجد شارات للأسماء. هل حقاً أن "تاء" التاريخ كانت تحتاج أن تُحقَن بمزيد من الهيكلة؟ أو أن "التاء" قد استولت عليها "تاء" أخرى، أو "نون" أو "هاء"، وانتهت المعركة. اتهمني أحداً مرة ليس بالتمرد، بل بالمناظرة، أو ربما بالمواعظية... ظننت، لم ذلك؟ أعرف لم. فهي تأتي من ثقافة الـ"يوتيوب" حيث كل شيء متوفر. خلفيتي علّمتني أن ما يعتبره الآخرون "مدخل إلى شيءٍ آخر" يطوي في داخله مشروع مبني على منطق النيوليبرالية وحقوق الإنسان. هل هناك من يمكنه إخباري ما هو هذا "الشيء الآخر"؟ لأنني تعلّمت أيضاً أنه لا بد للنيوليبرالية كي تتجذر وتصبح متداولةً يومياً وعفوياً، أن تجذب وتحاكي القيم التي تؤمن بها، كالكرامة الإنسانية والحرية - القيم التي تُعد جوهرية بمعايير الجميع - ليتم لاحقاً تعزيزها بالحديث عن "السلام" و"الحوار" و"السوق الحرة" و"العولمة"

و"حروب نشر الحرية" وأكثر من ذلك. وهي تستاقكم خلفها جميعاً. انا لم أخترع هذه النظرية. إنها أمر بديهي.

تلك نفسها اتهمني، بصورة غير مباشرة، باستعمال مصطلح "عالم الفن"، مصرةً على وجود "عوالم فن"، وبأنني جزء من هذا العالم/العوالم. (اليوم، يتم التعامل مع الإتهامات بشكلٍ مختلف جداً. في الواقع، هذه الإتهامات تُسمّى نقاشات، أو أسئلة علينا أن نطرحها دون إجابتها). العديد يصبح واحد. "من العديد واحد"؛ هذه ليست فكرتي، بل شعار وطني. وأسوأ من ذلك هو أن ظواهره المعاصرة تتسم بالتنوع والتعددية وحرية التعبير والحقائق البديلة إلخ إلخ إلخ... وتعلمون إن احشاءه معدنية.

كان هذا هو مدى تمردي؛ تمردت لدرجة أن أحداً لم يكترث. لم أكن لأموت على سارية في جلسة من النقد الذاتي كتلك اليابانية الثائرة الحامل من القرن الماضي في ذاك الفيلم المتكلف. العديد يصبح واحد، لذا ليس لأحد أن يهدد أحداً بسبب العصيان. بدلاً من ذلك، ينخرط الكل في فانتازيا السماع للاخر. في واقع الأمر، ألم يكن هذا هو سبب وجودنا على هذه الجزيرة؟

شخص آخر في عوالم الفن قال أن العصيان لم يكن قادماً، بل كان مغادراً. شيء من هذا القبيل. ربما كانت محقةً جزئياً. منطق الفن المعاصر واجهزته هو نفس المنطق الغالب للرأسمالية المتأخرة. هذه أيضاً لم تكن فكرتي حتماً. المؤسسة تبدو الخاطئة دوماً، وقول الـ"لا" يبدو مرغوباً. لكن علم الحساب لم يعلمهم ان سلبيان معاً ياتو بنتيجة ايجابية وان التفوه بـ"لا" عاجزة اسوأ من قول "نعم". ناهيك عن "وضع النوستالجيا" و"هوس الرترو" و"الاشكال الزومبية" و"السطحية". تتسرب مفردات هذا المنطق ضمن اللغة بطريقة حميمة أخذت الكلمة وافرغتها. كلمة وموقع وشكل وجبهة. إقرأها في كل مكان. "عبر الحدود الوطنية" هي عبارة طويلة ولكنها لم تحل محل أي شيء. أصبحت فقط حالة لا يمكنك إشاحة النظر عنها إن أردت أن يُنظرَ إليك. 'المعاصر' هو تصور اتحاد الأزمنة والفضاء عبر ما هو 'عابر للحدود الوطنية'. وَهْم الجمع عبر الشخصيات الفردية اللامتناهية. ما هو عابر للحدود القومية، يجعل هذا الوهم ممكناً. لم أطرح هذه الفكرة أيضاً. نحن لا نعيش في أوقات عديدة يا صديقي. لكن التاريخ يعود بشكل هزلي. والغير رسمي هو سم النخبة الليبرالية. إبحثوا عنه. تَكتيك؟ تيك توك تيك توك.

/ / /

أعود لارتشاف قهوتي الخفيفة الطعم، في تلك الغرفة الأمامية الباردة، شاعرة بالأمان في الزاوية حيث أجلس، بالرغم من أفكاري التي تكتسب زخماً متزايداً. تناول الشوكولا البلجيكية الآتية مباشرة من بلجيكا أمر يساعد. نتابع بالاستماع، باللغة الإنكليزية، إلى متحدثين من مصر ولبنان وأيرلندا ورومانيا وفلسطين وتركيا وفرنسا، يعيشون أو يقيمون في أو بين نيويورك ولندن وبيروت والقاهرة وأمستردام وبروكسيل، يتكلمون بالتعاقب. كلنا واحد. نفيض من العديد. مدة عشرة أو عشرون دقيقة لكل واحد، كلٌ يتحدث بدوره بينما الآخرين يستمعون اليه/ها. لا تسيئوا فهمي.

/ / /

”إن كان لك أن تتعاون مع أحد ما، من يكون؟ إن استيقظت في يوم من الأيام ووجدت أن عالم الفن ليس موجوداً، ماذا ستفعل؟ هل أنت من الداخل أم من الخارج؟ إختر ثلاث كلمات مهمة بالنسبة لك. رجاءاً إختر سؤالاً واحداً.“ فور وصولنا إلى الفندق وجدنا ملفات كانوا قد وضعوها لنا في غرفنا. ملفات تحتوي على أوراق، أوراق تحتوي على أسماء وتواريخ وأرقام هاتفية وسِيَر ذاتية وبرامج والأسئلة التي اختارها المشاركون وخرائط. ”بويوكادا“ التي كانت مرة الجزيزة التي احوت سياسة التعاون الدولية الرابعة كانت صغيرة وذات مرتفعات حادة. آخرون ممن ”يتجاوزون الحدود القومية“ زاروا بيت تروتسكي القديم في الصيف الماضي. هذه الجزيرة أصبحت موقع لسياحة الاثرياء. هناك ممر حجري أخضر ينحدر من البيت المحترق والمدمر جزئياً نحو واجهة مارمارا البحرية. في كل لحظة من لحظات النهار، تتعايش الحيوانات جنباً إلى جنب مع البشر على الجزيرة. قطط وحمام وكلاب وأحصنة، ترعى معاً. وفي الساعات الأولى من الفجر، تتشاجر الغربان وتتشاور على موضوع ما، أو جسم ما. كانت تتباحث فوق جثث ما لمعرفة سبب وفاتها. يُقال أن الغربان هي أفضل المحققين الشرعيين، وأنها تملك قدرة مدهشة في التعرف على الوجوه. وقيل لي بأنها تضمر نوايا سيئة تجاه من يُلحِق بها الأذى.

تم وضع برنامجنا. تحركنا في مجموعات. تحركنا بينما كنا نبارح مكاننا. كنا مطيعين. عددنا أعطانا الأمان. على أي حال، هذا ما قلته لهم، وهم قاموا بنشره. ولكن كما تعلم، يمككنا فعل ما هو أكثر بكثير بكل هذا.

/ / /

عندما عدت، وجدتني أحدث الطلاب عن كيف أن الـ”بيروت“ في بيروت، تلك التي نقلتها شركة سوليدير بحروف مائلة بينما حافظت على إسمها، كانت تشبه الـ”شارع“ في طعام الشارع الذي كانوا يأكلون منه في ذلك المكان الذي قال أنه باعهم ”أطعمة الشارع“ مقابل رسم الدخول، في حيز خاص، خوفاً من المساس بالشارع. إنه وباء.

كتب هذا النص في الاجتماع غير الرسمي السادس (تم اعادة تسميته متواطئون) الذي اقيم في جزيرة بويوكادا، اسطنبول، تركيا من ٢٩ حتى ٣١ يناير، ٢٠١٦.

*غالية سعداوي تقيم، تكتب وتدرس في بيروت.